مخطوط لم يعرف من قبل

ابن سينا والبعث

للأستاذ سليمان دنيا

(تتمة)

انتهينا فى مقالنا السابق إلى أن ابن سينا يمكن اعتباره قائلا بأن البعث روحى فقط ؛ وأبنا أن المطاف حول نصوصه فى هذا المقام — أخذا من الشفاء ، والنجاة ، والإشارات — ينتهى ، رغم تضاربها إلى إنكار البعث الجسمانى .

لكن تاريخ الفكر الإسلامى ، ما كان ليقنع من ابن سينا فى موضوع خطير كموضوع البعث ، بادعاء قصاراه الإمكان والتجويز ، أو الترجيح وغلبة الظن . ليس معه من الشواهد والأدلة — حتى فى نظر صاحب الادعاء — ما يسمو به إلى مصاف النظريات العلمية .

وقد كان ابن سينا عند ظن العلم به ، فلم يقنع هو من نفسه ، كما لم يقنع منه العلم ، بهذه الوقفة الحائرة ، فراح يشرع قلمه ليدبج عصارة فكره فى هذا المقام .

وقد دلنا البحث والتنقيب على أن له فى هذا الموضوع كتابين :
أحدهما يعرف بـ « رسالة فى المبدأ والمعاد » .
وثانيهما يعرف بـ « رسالة أضحوية فى أمر المعاد » .

وإذا كان ابن سينا قد أفرد كتابين لموضوع كهذا جرت عادة غيره بأن يتكلم عنه كلاماً ، يعد وافيا فى بابه ، ضمن كتاب لا فى كتاب مستقل ولا فى كتابين ، كان الأمل قويا فى أن يتكشف ابن سينا على حقيقته فى هذه المسألة ، وأن ينجلى الموقف عنده فيها انجلاء ، لا يبقى معه مجال لهذه البلبلة الفكرية التى أوحت بها كتبه الأخرى ، بما تحمل من أفكار متضاربة ، وآراء متنافرة متعارضة .

رجعت إلى أول الكتابين فإذا هو يقول فى مقدمته : « ... وبعد فإنى أريد أن أدل فى هذه المقالة على حقيقة ما عند المشائين ، بين المحصلين من حال المبدأ والمعاد ، وتقربا به إلى الشيخ الجليل أبى أحمد محمد بن إبراهيم الفارسى ... الخ » .

ولما كنت قد عرفت رأى ابن سينا فى المشائين ، وأنهم عنده من عامة المتفلسفة ، لا من خاصتهم ، وأنه كان ينحو نحوهم ويؤلف على غرارهم حين يكتب للعامة ؛ أما الخاصة فإنه يدخر لهم آراء أخرى مخالفة لآراء المشائين كثيراً من المخالفة ، يودعها كتبا يختصهم بها — انظر المقال السابق ، نص منطق المشرقيين — ، فقد نزعت الثقة من هذا الكتاب كمصدر يؤرخ منه لابن سينا ، وإن صح اعتباره مصدراً يؤرخ منه للمشائين كما يفهمهم ابن سينا إذ ليس يكفى أن يوضع اسم المؤلف على الكتاب ، ولا أن يكون صحيح النسبة إليه ، ليتخذ مصدراً يؤرخ منه له ، بل يجب أن يتحرى وراء التثبت من صحة النسبة ، عن أمر آخر ليس دون صحة النسبة أهمية ؛ ذلك هو قيمة المؤلف فى نظر صاحبه ، أعنى لمن ألفه ؟ ! هل ألفه ليصور به فكرته وعقيدته ؟ ! ... أم ألفه لأناس آخرين تنزل فيه إلى مستواهم ؟ ! وفى ضوء هذا يمكن اعتبار الكتاب مصدراً يستمد منه التأريخ لمؤلفه ، أو عدم اعتباره كذلك .

ولا شك أن إغفال هذه النظرة يوقع فى خلط واضطراب شديدين ، وقد تبينت ذلك واضحاً فى دراستى للغزالى ؛ إذ تضارب الكاتبون عنه تضارباً شديداً ، وتأدوا فى بحوثهم إلى أحكام متعارضة ، واعتصم كل منهم فى تأييد وجهة نظره ، بكتاب من كتبه صحت نسبته إليه ؛ مما حير العقول وبلبل الأفكار ، ومن أجل هذا اعتبر شخص الغزالى مشكلة من مشاكل العلم التى تتطلب الحل والإيضاح ، قال « ديبور » : « إن أمثال الغزالى معضلة فى نظر العلم ، فأشخاصهم حقائق روحية تحتاج إلى توضيح » .

وكان ذلك من غير شك نتيجة لإهمالهم هذا المبدأ الذى هو الطريق الوحيد ، لإضافة الفكرة إلى المؤلف مع الوثوق من أنها تصور رأيه وتعبر عن عقيدته ؛ فلما أخذت فى دراستى له بهذا المبدأ ، أبرزته فى كتابى عنه « الحقيقة فى نظر الغزالى » شخصية واضحة مفهومة ، لا تضارب فيها ولا تعارض .

ومن حسن حظ العلم أن المؤلفين الذين لهم جوانب متعددة ومظاهر متباينة ، قد عنوا بالدلالة على الكتب التى تصور آراءهم التى يرتضونها لأنفسهم ، تمييزاً لها من غيرها التى تصور أفكاراً

أخرى لا يدينون بها .

فمثلا نجد الغزالى يقول فى كتابه «الأربعين فى أصول الدين» ط الكردى ص ٢٥ :

« ومعرفة أدلة العقيدة قد أوردناها فى الرسالة القدسية فى قدر عشرين ورقة ، وهى أحد فصول كتاب قواعد العقائد من كتاب الإحياء .

وأما أدلتها مع زيادة تحقيق وزيادة تأنق فى إيراد الأسئلة والإشكالات ، فقد أودعناها كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » فى مقدار مائة ورقة ، فهو كتاب مفرد برأسه يحوى لباب علم المتكلمين ، ولكنه أبلغ فى التحقيق ، وأقرب إلى قرع أبواب المعرفة ، من الكلام الرسمى الذى يصادف فى كتب المتكلمين .

وكل ذلك يرجع إلى الاعتقاد ، لا إلى المعرفة ، فإن المتكلم لا يفارق العامى إلا فى كونه عارفا ، وكون العامى معتقدا ، بل هو أيضاً معتقد ، عرف مع اعتقاده أدلة الاعتقاد ، ليؤكد الاعتقاد ويستمده ، ويحرسه من تشويش المبتدعة ، ولا تنحل عقدة الاعتقاد إلى انشراح المعرفة .

فإن أردت أن تستنشق شيئاً من روائح المعرفة ، صادفت منها مقداراً يسيرا مبثوثاً فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب المحبة ، وباب التوحيد ، من أول كتاب التوكل ؛ وكل ذلك من كتاب الإحياء .

وتصادف منها مقداراً صالحاً يعرفك كيفية قرع باب المعرفة فى كتاب « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » لا سيما فى الأسماء المشتقة من الأفعال .

وإن أردت صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة ، من غير مجمجة ولا مراقبة ، فلا تصادفه إلا فى بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها . وإياك أن تغتر وتحدث نفسك بأهليته فتستهدف المشافهة بصريح الرد ، إلا أن تجمع ثلاث خصال :

الأولى : الاستقلال فى العلوم الظاهرة ، ونيل رتبة الإمامة فيها .

والثانية : انقلاع القلب عن الدنيا بالكلية ...

والثالثة : أن يكون قد أتيح لك السعادة فى أصل الفطرة الخ .

***

وهذا هو ابن سينا يقرر فى مقدمة كتابه « رسالة فى المبدأ والمعاد » إنه ألفه على مذهب المشائين ، فيجب — قبل الحكم بأن ما جاء فى الكتاب يصور رأى ابن سينا أولا يصوره — أن يعرف رأيه فى المشائين ، وهل هو يوافقهم ؟ أو يخالفهم ؟ !

وهذا هو نصه فى مقدمة منطق المشرقيين صريح فى أنه لا يدين بكل ما يدين به المشاءون ، ومن المحتمل أن يكون أمر البعث من المسائل التى اختلف فيها معهم ، فلا بد إذن من البحث عن مصدر آخر .

وفضلا عن ذلك فقد جاء فى عبارات الكتاب ما يدل على أن للمسألة عنده غورا ، وأن لها سرا لم يفض به فى هذا الكتاب كقوله « وهذا كلام مغلق ، تحته معان كثيرة ، فى شرحه على الحقيقة تكون النجاة » .

أصبح الأمل بعد هذا معقوداً بالكتاب الثانى . — رسالة أضحوية فى أمر المعاد — ، فلندرسه لنرى قيمته فى نظر ابن سينا ، بعد ما أجمع الباحثون على صحة نسبته إليه .

والقرائن المحيطة بالكتاب تدل على أن ابن سينا صور فيه رأيه ، وأبان معتقده :

أما أولاً : فلأن ابن سينا وهو يتحدث فى الإشارات عن البعث ، أحال استكمال القول فيه على كتاب آخر فيه سعة من القول ؛ والإشارات كما هو معلوم للباحثين يصور آراء ابن سينا التى يدين بها ويعتقدها ، فإذا أحال فيه على كتاب كانت قيمة الكتاب المحول عليه ، خصوصاً بالنسبة للبحث المشترك بين الكتابين ، من قيمة الكتاب المحول فيه ، وقد علمنا أنه نفض يده من الشفاء والنجاة ورسالة فى المبدأ والمعاد ، فلم يبق من الكتب التى تصلح أن تكون مرجعاً استوفى البحث واستكمله حتى يصلح للاحالة عليه إلا كتاب «رسالة أضحوية فى أمر المعاد» وهاك نصه فى الإشارات ط ليدن ص ١٩٧ « ثم ابسط هذا ، واستغن — وفى نسخة : واستمن — بما تجده فى موضع آخر لنا »

وأما ثانيا : فلأن الغزالى قد استمد رأى ابن سينا فى البعث من هذا الكتاب ، والغزالى دارس متعمق ، وقريب عهد بابن سينا وبكتبه ، فهو أعرف بما يصور رأيه وبما لا يصوره . واتهام الغزالى

بأن خصومته لابن سينا تمنع من التعويل على رأيه فيه ؛ يدفعه أن المدافعين عن ابن سينا ضد الغزالى أمثال ابن رشد ، لم يحاولوا قط أن يتهموا الغزالى — خصوصاً فى هذه المسألة — بأنه استقى معلوماته عنها من مصادر لا تعبر عن وجهة نظر ابن سينا التى يدين بها .

وأما ثالثاً : فلأن الكتاب نفسه ، ليس فيه شيء مطلقاً ، يدل على أن ابن سينا لم يعبر فيه عن رأيه ، ولم يصدر فيه عن معتقده ؛ والأصل فى الكتاب — متى صحت نسبته لصاحبه — أنه يصور رأيه ، إلا إذا وجد من القرائن والدلائل ما يصرف عن ذلك .

وفضلاً عن هذا فالكتاب يتلخص فى مرحلتين :

إحداهما : التعريف بكل الآراء التى قيلت فى المسألة .

والثانية : نقد كل هذه الآراء ، إلا رأياً واحداً استبقاه واستصفاه ، وساق على صحته كثيراً من الأدلة . ويحس قارىء الكتاب أن ابن سينا أفرغ فى هاتين المرحلتين كل قواه ، فلم يدخر جهداً فى هدم ما هدم ، ولم يدخر وسعاً فى تأييد ما أيد .

وعملية النفى والإثبات على هذا النحو من التتبع والتقصى ناطقة بأنها المنهج الصحيح للابانة عن مذهب المؤلف ورأيه الشخصى .

* * *

وفى كتاب « رسالة أضحوية فى أمر المعاد » هذا ، نجد ما حكى الغزالى عن ابن سينا من أدلة إنكار البعث الجسمانى ؛ وعند ذاك نجد ما نسد به تلك الثغرة التى كانت شاغرة فى تاريخ الفكر الإسلامى . وكنا قد أبنا فى مقالنا السابق أن لهذه الثغرة جانبين :

أحدهما : يتصل بابن سينا ، أعنى هل قال ما نسبه إليه الغزالى فى كتابه التهافت من أدلة إنكار البعث الجسمانى ، أم لا ؟! ، ضرورة أنه إن كان قائلا بها ، يكون قائلا بإنكار البعث الجسمانى على سبيل القطع ، دون أن يفسح المجال لشك أو تردد . وقد ثبت أنه قائل بها .

وثانيهما : يتصل بالغزالى ، أعنى هل هو ثقة حين يتحدث عن فرق خاصمهم ورد عليهم ، ممن طال العهد بهم بحيث لا يتيسر لنا الرجوع إلى مصادرهم الأصلية ؟! أم هو فى موضوع الشك والاتهام ؟! ، وقد ثبت أنه ثقة خصوصاً فى تلك المسألة التى أجرينا امتحانه فيها .

وبعد فلعلنا أيها القارىء الكريم قد شوقناك إلى كتاب « رسالة أضحوية فى أمر المعاد » ، وما راء كمن سمع ، وقريباً إن شاء الله يكون فى يدك ، فلقد تفضل مشكوراً الأستاذ البحاثة مدير المعهد الفرنسى باستحضار صور لجميع مخطوطاته الموجودة فى مكتبات العالم ، ليستعان بها على إخراج نص صحيح ، وقد راجعنا هذه الأصول كلها ، وعلقنا عليها ، وقدمنا الكتاب للطبع ، وهو الآن بالمعهد ينتظر دوره .

سليمان دنيا
مدرس الفلسفة وعلم العقيدة
بكلية أصول الدين

مجلس مديرية قنا

إدارة الهندسة القروية

تقبل العطاءات لغاية ظهر يوم الثلاثاء ٢٧ — ٧ — ١٩٤٨ عن إصلاح دورات مياه مساجد بنواحى مركزى الأقصر وإسنا ولغاية ظهر يوم الأربعاء ٢٨ — ٧ — ١٩٤٨ عن إصلاح دورات مياه مساجد بنواحى مركزى ابو طشت ونجع حمادى ولغاية ظهر يوم الخميس ٢٩ — ٧ — ١٩٤٨ عن إصلاح دورات مياه مساجد بنواحى مراكز قناودشنا وقوص

ويقدم الطلب على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما للحصول على كل نسخة من الشروط والمواصفات من الإدارة الهندسية بقنا نظير دفع مبلغ جنيه لكل عطاء بخلاف مائة مليم نظير أجرة البريد ويمكن الاطلاع على البيانات والرسومات بالإدارة الهندسية القروية بقنا .

٩٧٤١